أئمة الهدى



الشَّافِعِيُّ

نَاصِرُ السُّنَّة



سفير

من ١٠-١٤سنة

أئمة الهدى

الشافعِىّ

نَاصِرُ السُّنَّةِ

كتبها

سلامة محمد سلامة

رسمها

عبد المرضى عبيد



شركة سفير

محمد، سلامة

أئمة الهدى «الشافعى»/ سلامة محمد

١٢ ص، ٢٣ × ٢٣ سم

١- أئمة الهدى «الشافعى»

٢- الأطفال - تعليم

أ- محمد، سلامة ب- العنوان

ديوى/٢٢٩

رقم الإيداع : ١٣٩٥ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى : 7 - 276 - 361 - 977 : **ISBN**



سَارَتِ القَافِلَةُ الصَّغِيرَةُ طَوِيلا فَوْقَ صَفْحَةِ المُرُوجِ الخَضْرَاءِ الشَّاسِعَةِ التى بَدَتْ وكَأَنَّهَا بَحْرٌ مُتَّسِعٌ لانِهَايَةَ لَهُ مِنَ الحَشَائِشِ والزَّهْرِ حَتَّى أَصْبَحَتْ عَلَى مَشَارِفِ الصَّحْرَاءِ، فَبَدَأَ التَّعَبُ والإجْهَادُ يَحِلُّ بِمَنْ فيها، فَتَوَقَّفَ الرَّكْبُ، وَبَدَأَ الجَمِيعُ يَنْزِلُونَ مِنْ فَوْقِ ظُهُورِ رَوَاحِلِهِمْ، ثُمَّ أَخَذُوا يَتَعَاوَنُونَ فِى نَصْبِ خِيَامِهِم لِيَنَالُوا قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ قَبْلَ أَنْ يُواصِلُوا رِحْلَتَهُمُ الطَّوِيلَةَ عَبْرَ تِلْكَ الصَّحْرَاءِ الجَرْدَاءِ القَاحِلَةِ.

وَبَعْدَ قَلِيلٍ بَدَأَ اللَّيْلُ يُرْخِى سُدُولَهُ عَلَى المَكَانِ رُوَيدًا رُوَيدًا، فَقَبَعَ جَمِيعُ مَنْ فِى القَافِلَةِ دَاخِلَ خِيَامِهِم طَلَبًا لِلرَّاحَةِ وَالسُّكُونِ، وَعِنْدَ أَطْرَافِ القَافِلَةِ، وَفِى رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الوَادِى كَانَتْ هُنَاكَ خَيْمَةٌ صَغِيرَةٌ تَجْلِسُ أَمَامَهَا امْرَأَةٌ بِجِوَارِ صَغِيرِهَا الذى تَجَاوَزَ الثَّانِيَةَ مِنْ عُمْرِهِ، وَهِىَ تَشْخَصُ بِبَصَرِهَا نَحْوَ الأُفُقِ البَعِيدِ، وَتَقُولُ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ حَزِينٍ:

– يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَازَوجِى الحَبِيبُ!! لَمْ يَعُدْ يَطِيبُ لَنَا العَيْشُ فِى «غَزَّةَ» مِنْ بَعْدِكَ، وَكَانَ لا بُدَّ أَنْ أَعُودَ إِلَى «مَكَّةَ» لِيَتَرَبَّى وَلَدُكَ الصَّغِيرُ بَيْنَ أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ مِنْ «بَنِى المُطَّلِبِ»، لَقَدْ رَحَلْتَ بِنَا إِلَى تِلْكَ البِلادِ البَعِيدَةِ طَلَبًا لِلرِّزْقِ وَرَغَدِ العَيْشِ لَكِنَّ إِرَادَةَ اللَّهِ– عَزَّ وَجَلَّ– كَانَتْ أَسْبَقَ مِنْ أَحْلامِكَ فَمُتَّ عَلَى أَرْضِهَا، ودُفِنْتَ فِى تُرَابِهَا!!

وَانْخَرَطَتِ الأُمُّ المِسكِينَةُ فِى بُكَاءٍ طَوِيلٍ وَهِىَ تَسْتَرْجِعُ ذِكْرَيَاتِ المَاضِى الجَمِيلِ عَلَى أَرْضِ «فِلَسْطِينَ»، وَتِلْكَ السَّنَوَاتِ القَلِيلاتِ التِى قَضَتْهَا هُنَاكَ، وَالتِى مَرَّتْ كَأَنَّهَا حُلْمٌ جَمِيلٌ لَكِنَّهُ قَصِيرٌ، وَلَمْ تُفِقِ الأُمُّ إلا عَلَى صَوْتِ أَحَدِ رِجَالِ القَافِلَةِ وَهُوَ يَقُولُ بِصَوْتٍ قَوِىٍّ مُرْتَفِعٍ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ: اسْتَعِدُّوا لِلرَّحِيلِ.. اسْتَعِدُّوا لِلرَّحِيلِ..

انْطَلَقَتِ القَافِلَةُ تَقْطَعُ الصَّحَارِىَ الشَّاسِعَةَ، وَبَعْدَ أَيَّامٍ وَلَيَالٍ مِنَ المَشَقَّةِ وَالعَنَاءِ لاحَتْ مِنْ بَعِيد جِبَالُ «مَكَّةَ» وَعَدَدٌ غَيْرُ قَلِيلٍ مِنَ البُيُوتِ، وَمَعَ غُرُوبِ شَمْسِ أَحدِ أَيَّامِ عَامِ (١٥٢) هِجْرِيةِ كَانَتِ القَافِلَةُ تَحُطُّ رِحَالَهَا عَلَى أَرْضِ «مَكَّةَ» المُبَارَكَةِ بِسلامٍ وَأَمَانٍ.

عَاشَتْ أُمُّ الصَّغِيرِ «مُحَمَّدِ بْنِ إدْرِيسَ الشَّافِعِىِّ» مَعَ أَهْلِ زَوْجِهَا فِى سَعَادَةٍ وَهَنَاءٍ، وَعَكَفَتِ الأُمُّ عَلَى تَرْبِيَةِ وَلَدِهَا وَرِعَايَتِهِ وَعِنْدَمَا شَبَّ وَلَدُهَا قَلِيلا أَرْسَلَتْهُ إلَى مُعَلِّمٍ يُعَلِّمُهُ القِرَاءَةَ والكِتَابَةَ ويُحَفِّظُهُ القُرْآنَ.

تَجَهَّزَ الصَّغِيرُ « مُحَمَّدٌ» لأَوَّلِ يَوْمٍ فِى الدَّرْسِ، وَأَقْبَلَ عَلَى مُعَلِّمِهِ وَهُوَ لا تَكَادُ تَحْمِلُهُ قَدَمَاهُ فَلَمَّا اسْتَصْغَرَهُ المُعَلِّمُ أَجْلَسَهُ إلَى جِوَارِهِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُنْصِتَ إلَيْهِ وَهُوَ يُعَلِّمُ مَنْ هُمْ أَكْبَرَ مِنْهُ حَتَّى يَتَعَوَّدَ عَلَى الدِّرَاسَةِ وَالتَّحْصِيلِ، غَيْرَ أَنَّ «الشَّافِعِىَّ» كَانَ ذَا فِطْنَةٍ عَالِيَةٍ وذَكَاءٍ مُتَّقد فَلَمْ يَكَدْ شَيْخُهُ يُمْلِى عَلَى طُلابِهِ سُورَةً مِمَّا يَحْفَظُونَهَا إلا وَيَجِدُهُ قَدْ فَهِمَهَا وَحَفِظَهَا بِسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ، فَأَحَبَّهُ المُعَلِّمُ، وَقَرَّبَهُ إلَيْهِ، وشَجَّعَهُ عَلَى الاسْتِمْرَارِ فِي طَرِيقِهِ؛ فَكَانَ لِذَلِكَ التَّشْجِيعِ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِى نَفْسِهِ فَازْدَادَ نُبُوغُهُ، وَبَرَزَ تَفَوُّقُهُ إلَى حَد جَعَلَ مُعَلِّمَهُ يَقُولُ لَهُ :

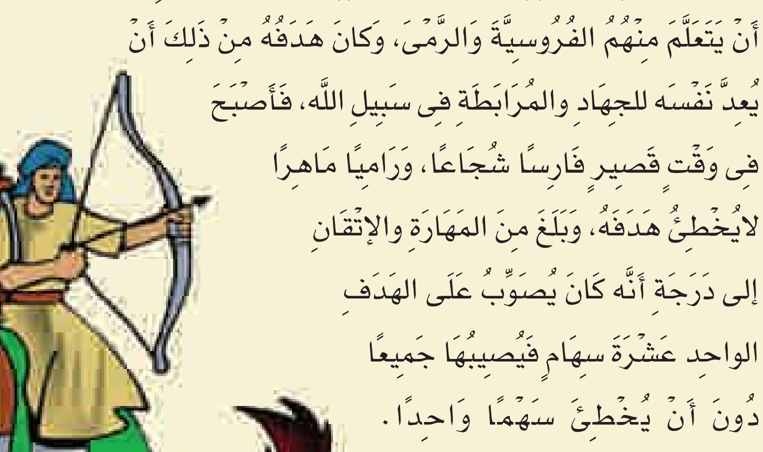
- يَا - - يَا بُنَىَّ لا يَحِلُّ لِى أَنْ آخُذَ مِنْكَ أَجْرًا نَظِيرَ تَعْلِيمِى لَكَ، وَيَكْفِينِى أَنْ تَخْلُفَنِى فِى مَقَامِى هَذَا إذَا غِبْتُ عَنْهُ يَوْمًا، وَتُشْرِفَ عَلَى أُولَئِكَ الصِّبْيَانِ، وَتُلَقِّنَهُم مِمَّا حَفِظْتَ.

أَحَسَّتِ الأُمُّ بِأَنَّ وَلَدَهَا مُحَمَّدًا سَوْفَ يَكُونُ لَهُ شَأْنٌ كَبِيرٌ إذَا مَا سَلَكَ طَرِيقَ العِلْمِ حَتَّى نِهَايَتِهِ وخَاصَّةً بَعْدَ أَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْفَظَ القُرْآنَ الكَرِيمَ كَامِلا وَهُوَ فِى سِنِّ السَّابِعَةِ مِنْ عُمْرِهِ فَقَرَّرَتْ أَنْ تُكْمِلَ المَسِيرَ، وَتَدْفَعَ بِهِ إلَى بَيْتِ اللَّهِ الحَرَامِ الذى

كَانَ حينَئذ قَلْعَةً بَاسِقَةً مِنْ قِلاعِ العِلْمِ، فَدَخَلَ «الشَّافِعِىُّ» المَسْجِدَ، وَبَدأَ يَتَرَدَّدُ عَلى الفُقَهاءِ والمُحَدِّثِينَ، وَلَمْ يَكدْ يَجدُ ثَمَنَ مَا يَشْتَرِى بِهِ الوَرَقَ لِيُدَوِّنَ عَلَيْهِ دُرُوسَهُ، فَعَمَدَ إِلَى جَمْعِ جُلُودِ الحَيَوَانَاتِ، وَعِظَامِ أَكْتَافِ الإِبِلِ، وَسَعَفِ النَّخِيلِ، وَأَخَذَ يُدَوِّنُ عَلَيْهَا أَحَادِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

أَدْرَكَ «الشَّافِعِىُّ» أَنَّهُ فِى حَاجَةٍ إِلَى تَعَلُّمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَةِ الفُصْحَى مِنْ نَبْعِهَا الصَّافِى وَمَوْرِدِهَا العَذْبِ؛ حَتَّى يَفْهَمَ مَا حَفِظَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَمَادَرَسَ مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَهَبَ إِلَى البَادِيَةِ وَلازَمَ قَبِيلَةَ «هُذَيْلٍ» وَكَانَتْ مِنْ أَفْصَحِ القَبَائِلِ العَرَبِيَّةِ، وَأَخَذَ يَرْحَلُ بِرَحِيلِهِمْ ، وَيَنْزِلُ بِنُزُولِهِمْ، وَتَكَبَّدَ مَشَقَّةَ السَّفَرِ، وَخُشُونَةَ العَيْشِ سِنِينًا عَدِيدَةً، حَتَّى تَعَلَّمَ فَصِيحَ كَلامِهِم وَحَفِظَ كَثِيرًا مِنْ أَشْعَارِهِمْ، فَبَلَغَ مَبْلَغًا عَظِيمًا مِنَ الفَصَاحَةِ وَالبَلاغَةِ وَطَلاقَةِ اللِّسَانِ.

وَلَمْ يَتْرُكِ «الشَّافِعِىُّ» فُرْصَةَ وُجُودِهِ بَينَ أَهْلِ «هُذَيْلٍ» تَفُوتُ دُونَ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْهُمُ الفُرُوسِيَّةَ وَالرَّمْىَ، وَكَانَ هَدَفُهُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُعِدَّ نَفْسَهُ لِلجِهَادِ وَالمُرَابَطَةِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَصْبَحَ فِى وَقْتٍ قَصِيرٍ فَارِسًا شُجَاعًا، وَرَامِيًا مَاهِرًا لايُخْطِئُ هَدَفَهُ، وَبَلَغَ مِنَ المَهَارَةِ وَالإِتْقَانِ إِلى دَرَجَةِ أَنَّه كَانَ يُصَوِّبُ عَلَى الهَدَفِ الوَاحِدِ عَشْرَةَ سِهَامٍ فَيُصِيبُهَا جَمِيعًا دُونَ أَنْ يُخْطِئَ سَهْمًا وَاحِدًا.





وَمَرَّتِ الأَيَّامُ وَالسُّنُونَ، وَعَادَ «الشَّافِعِىُّ» إِلَى بَلَدِهِ الحَبِيبِ «مَكَّةَ» وَهُوَ يَحْمِلُ فِى قَلْبِهِ حَنِينًا جَارِفًا وَشَوْقًا كَبِيرًا إِلَى كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ تُرَابِهَا

الطَّاهِرِ، وَرِيحِهَا الطَّيِّبِ العَطِرِ، وَمَا كَادَ «الشَّافِعِيُّ» يَنَالُ قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ حَتَّى انْطَلَقَ يُكْمِلُ مَسِيرَهُ فِى طَرِيقِ العِلْمِ مَدْفُوعًا بِحُبِّهِ الفِطْرِىِّ لِهَذَا الطَّرِيقِ، وَبِتَشْجِيعِ أُمِّهِ، فَذَهَبَ يَطْلُبُ الحَدِيثَ النَّبَوِىَّ الشَّرِيفَ عَلَى مُحَدِّثِ الحَرَمِ المَكِّى «سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ»، ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَى دِرَاسَةِ الفِقْهِ عَلَى مُفْتِى «مَكَّةَ» وَشَيْخِ الحَرَمِ الشَّرِيفِ «مُسْلِمِ بْنِ خَالِدٍ الزِّنْجِىِّ»، فَبَرَزَ «الشَّافِعِىُّ» مُفَسِّرًا بَارِعًا، وَمُحَدِّثًا ثِقَةً، وَفَقِيهًا نَابِغَةً، حَتَّى أَذِنَ لَهُ أُسْتَاذُهُ وَمُعَلِّمُهُ «مُسْلِمُ بْنُ خَالِدٍ» بِالفُتْيَا وَهُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَقَالَ لَهُ:

- «أَفْتِ يَا مُحَمَّدُ فَقَدْ آنَ لَكَ - وَاللَّهِ- أَنْ تُفْتِى».

وَكَانَ شَيْخُهُ « سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ» إِذَا جَاءَهُ شَىْءٌ مِنَ التَّفْسِيرِ أَوِ الفُتْيَا التَفَتَ إِلَى الشَّافِعِىِّ وَقَالَ: «سَلُوا هَذَا الغُلامَ».

وَكَانَ يُمْكِنُ لِلشَّافِعِىِّ أَنْ يَقِفَ عِنْدَ هَذَا القَدْرِ مِنَ العِلْمِ وَالمَكَانَةِ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ مَنْزِلَةَ الإِفْتَاءِ، لَكِنَّ شَغَفَهُ الكَبِيرَ فِى طَلَبِ العِلْمِ وَظَمَأَهُ إِلَى المَزِيدِ مِنْهُ لَمْ يَكُنْ يَقِفُ بِهِ عِنْدَ حَدٍّ، فَقَدْ وَصَلَ إِلَى مَسَامِعِهِ خَبَرُ إِمَامِ «المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ» «مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ» فَسَمَتْ هِمَّتُهُ العَالِيَةُ إِلَى الذَّهَابِ إِلَيْهِ، وَالتَّتَلْمُذِ عَلَى يَدَيْهِ، لَكِنْ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى «المَدِينَةِ» وَهُوَ خَالِى الوِفَاضِ مِنْ عِلْمِ «مَالِكٍ» فَاسْتَعَارَ كِتَابَ «المُوَطَّأ» مِنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ «مَكَّةَ» ، وَحَفِظَهُ فِى تِسْعِ لَيَالٍ فَقَطْ، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ ذَهَبَ إِلَى وَالِى «مَكَّةَ»، وَأَخَذَ مِنْهُ رِسَالَةً إِلَى وَالِى «المَدِينَةِ» لِيُزَكِّيهِ عِنْدَ الإِمَامِ «مَالِكٍ».

تَوَجَّهَ «الشَّافِعِىُّ» إِلَى بَيْتِ الإِمَامِ «مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ» فِى صُحْبَةِ وَالِى «المَدِينَةِ»، وَكَانَ «الشَّافِعِىُّ» حِينَئِذٍ لا يَتَجَاوَزُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ، فَأَخَذَ الإِمَامُ «مَالِكٌ» يَنْظُرُ طَوِيلا إِلَى ذَلِكَ الفَتَى الطَّوِيلِ الأَسْمَرِ وَهُوَ يَحْكِى قِصَّتَهُ فِى طَلَبِ العِلْمِ بِشَجَاعَةٍ وَفَصَاحَةٍ، وَكَانَتْ لِلإِمَامِ فِرَاسَةٌ عَجِيبَةٌ، وَبَصِيرَةٌ نَافِذَةٌ، فَقَالَ لَهُ :

- يَا بُنَىَّ إِنَّهُ سَوْفَ يَكُونُ لَكَ شَأْنٌ عَظِيمٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَإِذَا مَا جَاءَ الغَدُ تَحْضُرُ إِلَىَّ، وَتَأْتِى مَعَكَ بِمَنْ يَقْرَأُ لَكَ كِتَابَ «المُوَطَّأ» فَإِنِّى أَخْشَى أَلا تُحْسِنَ قِرَاءَتَهُ، فَقَالَ الشَّافِعِىُّ : بَلْ أَنَا أَقْرَؤُهُ عَلَيْكَ حِفْظًا دُونَ كِتَابٍ يَا إِمَامُ.

وَذَهَبَ «الشَّافِعِىُّ» إِلَى شَيْخِهِ، وَأَخَذَ يَقْرَأُ الكِتَابَ عَلَيْهِ، فَأُعْجِبَ الإِمَامُ بِقِرَاءَتِهِ، وَكَانَ كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَتَوَقَّفَ عَنِ



القِراءَةِ كَانَ الإمَامُ يَقُولُ لَهُ : بِاللَّهِ يَا فَتَى زِدْ، حَتَّى قَرَأَ «الشَّافِعِيُّ» الكِتَابَ كَامِلا فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ.

ظَلَّ «الشَّافِعِيُّ» مُلازِمًا لِشَيْخِهِ «مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ» زَمَنًا طَوِيلا يَنْهَلُ مِنْ عِلْمِهِ، حَتَّى تُوُفِّيَ الإمَامُ عَامَ (١٧٩) هِجْرِيَّة، وَكَانَ «الشَّافِعِيُّ» سَاعَتَهَا شَابًا يَافِعًا يَبْلُغُ مِنَ العُمْرِ تِسْعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَلَمْ يَدَعِ «الشَّافِعِيُّ» طَوَالَ هَذِهِ المُدَّةِ عَالِمًا مِنْ عُلَمَاءِ «المَدِينَةِ» إلا ذَهَبَ إِلَيْهِ وَأَخَذَ عَنْهُ العِلْمَ حَتَّى جَمَعَ عِلْمَ «الحِجَازِ» كُلَّهُ.

جَلَسَ «الشَّافِعِيُّ» يَوْمًا مَعَ أَصْدِقَائِهِ مَهْمُومًا حَزِينًا، بَعْدَ أَنْ ضَاقَتْ بِهِ سُبُلُ العَيْشِ، وَكَلَّتْ نَفْسُه عَن أَنْ يَجِدَ عَمَلا يَتَكَسَّبُ مِنْهُ مَا يُنْفِقُ بِهِ عَلَى أُمِّهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، وَكَانَ وَالِي اليَمَنِ «حَمَّادُ بْنُ البَرْبَرِيِّ» قَدْ قَدِمَ «مَكَّةَ» فِى ذَلِكَ الوَقْتِ، فَهَرَعَ إِلَيْهِ بَعْضُ أَحِبَّاءِ «الشَّافِعِيِّ» وَأَقْرِبَاؤُهُ، وَطَلَبُوا مِنَ الوَالِى أَنْ يَصْحَبَ «الشَّافِعِيَّ» مَعَهُ إِلَى «اليَمَنِ»، وَيُسْنِدَ إِلَيْهِ أَيَّ عَمَلٍ يَتَكسَّبُ مِنْهُ، فَرَحَّبَ الوَالِى بِهِ كَثِيرًا، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُجَهِّزَ نَفْسَهُ لِلسَّفَرِ فِى القَرِيبِ العَاجِلِ.

سَافَرَ «الشَّافِعِيُّ» إِلَى مَدِينَةِ «نَجْرَانَ» بِاليَمَنِ، وَهُنَاكَ أَسْنَدَ إِلَيْهِ الوَالِى مُهِمَّةَ القَضَاءِ، فَقَامَ «الشَّافِعِيُّ» بِهَا بِنَجَاحٍ وَاقْتِدَارٍ، وَأَمَانَةٍ وَعَدْلٍ، فَأَثْنَى عَلَيْهِ أَهْلُ اليَمَنِ، وَحَمِدُوا لَهُ صَنِيعَهُ وَتَقْوَاهُ وَوَرَعَهُ.

وَقَدْ حَاوَلَ بَعْضُ ذَوِى النُّفُوذِ وَالسُّلْطَانِ التَّوَدُّدَ إِلَى «الشَّافِعِيِّ» لِتَحْقِيقِ بَعْضِ مَصَالِحِهِمْ عَلَى حِسَابِ أَهْلِ «نَجْرَانَ» كَمَا اعْتَادُوا أَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ مَعَ كُلِّ مَنْ يَتَوَلَّى أَمْرَ القَضَاءِ بَيْنَهُم، لَكِنَّهُم لَمْ يُفْلِحُوا وَلَمْ يَجِدُوا فِى نَفْسِ «الشَّافِعِيِّ» الطَّاهِرَةِ اسْتِجَابَةً لإغْرَائِهِمْ، بَلْ وَجَدُوهُ يَتَّجِهُ بِكُلِّ قُوَّةٍ نَحْوَ إِقَامَةِ العَدْلِ وَنُصْرَةِ المَظْلُومِ مَهْمَا كَلَّفَهُ ذَلِكَ، فَأَجْمَعَ الظَّالِمُونَ أَمْرَهُم، وَأَرْسَلُوا إِلَى «هَارُونَ الرَّشِيدِ» خَلِيفَةِ المُسْلِمِينَ يَتَّهِمُونَ «الشَّافِعِيَّ» وَجَمَاعَةً مَعَهُ بِالتَآمُرِ عَلَى الخِلافَةِ العَبَّاسِيَّةِ، فَغَضِبَ الخَلِيفَةُ، وَأَرْسَلَ فِى طَلَبِهِم جَمِيعًا وَهُمْ مُكَبَّلُونَ فِى أَغْلالِهِم، وَحُمِلَ «الشَّافِعِيُّ» إِلَى «بَغْدَادَ» عَاصِمَةِ الخِلافَةِ العَبَّاسِيَّةِ سَنَةَ (١٨٤) هِجْرِيَّة، وَأُمِرَ أَلا يَتْرُكَهَا حَتَّى يَأْذَنَ لَهُ الخَلِيفَةُ بِالمُثُولِ أَمَامَهُ وَالنَّظَرِ فِى أَمْرِهِ، فَاسْتَغَلَّ «الشَّافِعِيُّ» فُرْصَةَ وُجُودِهِ فِى «بَغْدَادَ»، وَانْطَلَقَ يَطْلُبُ العِلْمَ، وَكَانَ مَعَهُ حِينَئِذٍ سِتُّونَ دِينَارًا أَنْفَقَهَا عَلَى كِتَابَةِ كُتُبِ «مُحَمَّدِ بْنِ الحَسَنِ» فَقِيهِ العِرَاقِ الجَلِيلِ.



وَبِفَضْلِ صِدْقِهِ وَصَبْرِهِ وَرَبَاطَةِ جَأْشِهِ، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ مِحْنَتَهُ، وَأَبْرَأَ سَاحَتَهُ، وَأَلَّفَ قَلْبَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ، حَتَّى أَنَّهُ أَمَرَ لَهُ بِخَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ مُكَافَأَةً، وَزَادَهُ أَحَدُ قُوَّادِ الْخَلِيفَةِ خَمْسَمِائَةِ دِينَارٍ أُخْرَى، فَقَالَ «الشَّافِعِيُّ» بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ:

– وَاللَّهِ مَا مَلَكْتُ فِى يَدِى أَلْفَ دِينَارٍ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ؟!

وَبَعْدَ الْمِحْنَةِ أَقَامَ «الشَّافِعِيُّ» مُدَّةً فِى «بَغْدَادَ» تِلْمِيذًا لِمُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ، وَغَيْرِهِ مِنْ فُقَهَاءِ «بَغْدَادَ» الْعِظَامِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى «مَكَّةَ»، وَهُوَ يَحْمِلُ مَعَهُ حِمْلَ بَعِيرٍ مِمَّا دَوَّنَهُ مِنْ عِلْمِ أَهْلِ «الْعِرَاقِ».

وَفِى فِنَاءِ «زَمْزَمَ»، وَإِلَى جِوَارِ مَقَامِ «إِبْرَاهِيمَ» – عَلَيْهِ السَّلَامُ – جَلَسَ «مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ» يُعَلِّمُ النَّاسَ، فَالْتَفَّ حَوْلَهُ طُلَّابُ الْعِلْمِ مِنْ كُلِّ أَرْجَاءِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِىِّ، وَقَصَدَهُ كِبَارُ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ لِيَأْخُذُوا عَنْهُ الْعِلْمَ، وَيَسْتَمِعُونَ مِنْهُ إِلَى أُصُولٍ وَقَوَاعِدَ فِى فَهْمِ وَاسْتِنْبَاطِ الْفِقْهِ الْإِسْلَامِىِّ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَهْدٌ بِسَمَاعِهَا بِهَذَا التَّرْتِيبِ مِنْ قَبْلُ، فَأَخَذَ بِعُقُولِهِمْ، وَبَهَرَ أَسْمَاعَهُمْ، وَشَهِدُوا لَهُ جَمِيعًا بِالتَّفَوُّقِ وَالرِّيَادَةِ وَالْفَهْمِ وَسَعَةِ الْعَقْلِ، حَتَّى قَالَ عَنْهُ «أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ» (أَحَدَ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ بَعْدَئِذٍ) حِينَ زَارَ مَكَّةَ حَاجًّا وَجَلَسَ فِى حَلْقَةِ «الشَّافِعِىِّ» دُونَ مَا سِوَاهَا لِيَأْخُذَ عَنْهُ الْعِلْمَ:

– مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَفْقَهَ فِى كِتَابِ اللَّهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ «مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِى» ؟!

وَمَا هِىَ إِلا فَتْرَةٌ قَصِيرَةٌ حَتَّى أَصْبَحَتْ حَلْقَةُ

«الشَّافِعِىِّ» مِنْ أكبرِ حَلَقَاتِ العِلْمِ فِى المَسْجِدِ الحَرَامِ، بَلْ إنَّ شُهْرَتَهَا جَاوَزَتْ حُدُودَ «مَكَّةَ» وَبَلَغَتِ «العِرَاقَ» إِلَى حَدٍّ دَعَا أَحَدَ عُلَمَائِهِ الكِبارِ وَهُوَ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِىٍّ» أَنْ يَكْتُبَ إِلَى «الشَّافِعِىِّ» رِسَالَةً يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَضَعَ كِتَابًا فِى أَدِلَّةِ التَّشْرِيعِ مِنَ القُرْآنِ والسُّنَّةِ وَالإجْمَاعِ وَغَيْرِهَا مِنَ المَسَائِلِ التِى يَنْبَنِى عَلَيْهَا الفِقْهُ، فَأَلَّفَ لَهُ «الشَّافِعِىُّ» كِتَابَ «الرِّسَالَةِ» الذِى يُعَدُّ أَوَّلَ كِتَابٍ وُضِعَ فِى عِلْمِ «أُصُولِ الفِقْهِ» ذَلِكَ العِلْمُ الذِى نَظَمَ قَوَاعِدَهُ وَصَاغَ مَسَائِلَهُ وَجَمَعَ شَتَاتَ أَبْوَابِهِ الإمَامُ الشَّافِعِىُّ.

وَمَعَ نَسَمَاتِ صَبَاحِ أَحَدِ أَيَّامِ سَنَةِ (١٩٥) هِجْرِيَّة كَانَ الإمَامُ «الشَّافِعِىُّ» فِى طَرِيقِهِ إِلَى رِحْلَةٍ ثَانِيَةٍ إِلَى «بَغْدَادَ»، وَلكِنَّهُ فِى هَذِهِ المَرَّةِ يَذْهَبُ إِلَيْهَا كَعَالِمٍ فَقِيهٍ رَاسِخٍ فِى العِلْمِ ذُو شُهْرَةٍ وَاسِعَةٍ.

عَقَدَ الإمَامُ الشَّافِعِىُّ مَجْلِسَهُ فِى الجَامِعِ الغَرْبِىِّ بِبَغْدَادَ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ العُلَمَاءُ وَالفُقَهَاءُ وَطَلَبَةُ العِلْمِ يَنْهَلُونَ مِنْ عِلْمِهِ، وَيَتَفَقَّهُونَ بِفِقْهِهِ، وَيَأْخُذُونَ عَنْهُ مَا خَفِىَ عَلَيْهِمْ مِنْ عُلُومِ القُرآنِ وَالسُّنَّةِ، وَكَيْفِيَّةِ اسْتِنْبَاطِ الأَحْكَامِ مِنْهُمَا، فَعرَفَ العُلَمَاءُ لَهُ قَدْرَهُ، وَشَهِدُوا لَهُ جَمِيعًا بِالفَضْلِ. حَتَّى قَالَ «أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ» تِلْمِيذُ «الشَّافِعِىِّ» النَّجِيبُ :

- «مَا أَحَدٌ مَسَّ بِيَدِهِ مَحْبَرَةً وَلا قَلَمًا، إلا وَلِلشَّافِعِىِّ فِى رَقَبَتِهِ مِنَّةٌ، وَلَوْلا الشَّافِعِىُّ مَا عَرَفْنَا فِقْهَ الحَدِيثِ».



وَظَلَّ «الشَّافِعِىُّ» طَوَالَ سَنَتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ عَلَى أَرْضِ «العِرَاقِ» يُدَرِّسُ وَيُفْتِى وَيُعَلِّمُ، فَتَتَلْمَذَ عَلَى يَدَيْهِ الكَثِيرِ مِنْ طُلابِ العِلْمِ وَقَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ الإِمَامُ عَنْ أَرْضِ «العِرَاقِ» كَانَ قَدِ انْتَهَى مِنْ تَأْلِيفِ كِتَابِهِ الضَّخْمِ المَعْرُوفِ بِاسْمِ «الحُجَّةِ» وَفِيهِ وَضَعَ الإِمَامُ خُلاصَةَ مَذْهَبِهِ الفِقْهِىِّ الجَدِيدِ.

وفِى أَوَاخِرِ سَنَةِ (١٩٩) هِجْرِيَّةِ وَلَّى الخَلِيفَةُ العَبَّاسِىُّ «المَأْمُونُ» «العَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ» وِلايَةَ «مِصْرَ»، وَكَانَ «العَبَّاسُ» يَرْغَبُ فِى أَنْ يَصْحَبَ مَعَهُ «الشَّافِعِىَّ» لِيُفِيدَ مِنْ عِلْمِهِ أَهْلَ «مِصْرَ» فَوَافَقَ الإِمَامُ، وَسَافَرَ مَعَهُ، وَبَدَأَ يَنْشُرُ عِلْمَهُ وَفِقْهَهُ بَيْنَ أَهْلِ «مِصْرَ» فَمَا لَبِثَ أَنْ أَحَبَّهُ النَّاسُ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الطُّلابُ مِنْ كُلِّ أَقْطَارِ العَالَمِ الإِسْلامِىِّ.

وَكَانَتْ حَلْقَةُ الإِمَامِ فِى جَامِعِ «عَمْرِو بْنِ العَاصِ» الذِى كَانَ بِمَثَابَةِ الجَامِعَةِ فِى ذَلِكَ الوَقْتِ، ومُلْتَقًى لِلْعُلَمَاءِ وَالفُقَهَاءِ، فَكَانَ «الشَّافِعِىُّ» يَجْلِسُ فِى المَسْجِدِ يُدَرِّسُ مِنْ بَعْدِ صَلاةِ الفَجْرِ حَتَّى مُنْتَصَفِ النَّهَارِ، يَبْدَأُ بِعُلُومِ القُرآنِ، ثُمَّ عُلُومِ الحَدِيثِ وَالفِقْهِ، ثُمَّ يَنْتَهِى الدَّرْسُ بِعُلُومِ اللُّغَةِ، وَاسْتَطَاعَ الإِمَامُ خِلالَ مُدَّةٍ قَلِيلَةٍ أَنْ يَأْخُذَ بِعِلْمِهِ وَفَصَاحَتِهِ عُقُولَ النَّاسِ كَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَمْلِكَ بِزُهْدِهِ وَوَرَعِهِ وَتَقْوَاهُ وكَرَمِهِ قُلُوبَهُمْ.

وَعَلَى الرَّغْمِ من كِبَرِ سِنِّهِ وَضَعْفِ قُوَّتِهِ، بَعْدَ أَنْ تَجَاوَزَ الخَمْسِينَ مِنْ عُمُرِهِ، إلا أَنَّهُ كَانَ فِى بَعْضِ الأَحْيَانِ يَذْهَبُ إِلَى ثَغْرِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ يَحْرُسُ عَلَى أَحَدِ مَوَاقِعِهَا لِعِدَّةِ لَيَالٍ لِيَنَالَ شَرَفَ الجِهَادِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ.

مَرِضَ الإِمَامُ «الشَّافِعِىُّ» فِى آخِرِ حَيَاتِهِ بِالبَوَاسِيرِ وَظَلَّ هَذَا المَرَضُ مُلازِمًا لَهُ طَوَالَ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ إِلَى دَرَجَةِ أَنَّ الدَّمَ كَانَ يَنْزِلُ مِنْهُ وَهُوَ رَاكِبٌ فَرَسَهُ

فِى طَرِيقِهِ إلَى مُحَاضَرَةٍ أَوْ دَرْسٍ فَيَمْلأُ ثَوْبَهُ وَنَعْلَهُ، فَما يَمْنَعُهُ ذَلِكَ مِنْ مُواصَلَةِ سَيْرِهِ.

وكَانَ يَمْكُثُ السَّاعَاتِ الطُّوَالَ فِى بَيْتِهِ مُتَحَامِلا عَلَى نَفْسِهِ والدَّمُ يَنْزِلُ مِنْهُ فِى طِسْتٍ، وَلا يَمْنَعُه ذَلِك أيْضًا مِنْ أَنْ يَكْتُبَ وَيُؤَلِّفَ وَيُنَقِّحَ مَا كَانَ قَدْ كَتَبَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، كَكِتَابِ «الرِّسَالَةِ» الذى أَلَّفَهُ «بمكَّةَ» وَأَعَادَ النَّظَرَ فِيهِ بِمِصْرَ، وَكَكِتَابِ «الحُجَّةِ» الذى أَلَّفَهُ بِالعِرَاقِ وَأَعَادَ النَّظَرَ فيه أيْضًا، ثُمَّ سَمَّاهُ بَعْدَ تَعْدِيلِهِ كِتَابَ «الأُمِّ»، وَظَلَّ الإمَامُ عَلَى دَأْبِهِ وَنَشَاطِهِ حَتَّى أَقْعَدَهُ المَرَضُ، وانْقَطَعَ عَنِ الدَّرْسِ فَكَانَ تَلامِيذُهُ يَزُورُونَهُ فِى بَيْتِهِ وَيُوَاسُونَهُ فِى مَرَضِهِ.

دَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا أَحَدُ تَلامِيذِهِ فقَالَ : كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا إمَامُ؟

فَقَالَ الإمَامُ :

- «أَصْبَحْتُ عَنِ الدُّنْيَا رَاحِلا، وَلِلإِخْوَانِ مُفَارِقًا، وَلِكَأْسِ المنيَّةِ شَارِبًا، وَعَلَى اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ وَارِدًا، وَاللَّهِ مَا أَدْرِى رُوحِى تَصِيرُ إِلَى الجنَّةِ فَأُهَنِّئُهَا، أَوْ إِلَى النَّارِ فَأُعَزِّيهَا» !!! ثُمَّ بَكَى الإمَامُ، وَقَالَ مُنَاجِيًا غَافِرَ الذَّنْبِ وَقَابِلَ التَّوْبِ سُبْحَانَهُ:

فَلَمَّا قَسَى قَلْبِى وَضَاقَتْ مَذَاهِبِى ... جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّى لِعَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِى ذَنْبِى فَلَمَّا قَرَنْتُهُ ... بِعَفْوِكَ رَبِّى كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا
وَمَا زِلْتَ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَم تَزَلْ ... تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا

ثُمَّ صَعِدَتْ رُوحُ الإمَامِ الطَّاهِرَةُ إِلَى بَارِئِهَا لَيْلَةَ الجُمُعَةِ، آخرَ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ «رَجَبٍ» سَنَةَ (٢٠٤هـ) وَحُمِلَ جُثْمَانُهُ الطَّاهِرُ عَلَى الأَعْنَاقِ إِلَى مَثْوَاهُ الأخيرِ بِمَقْبَرَةِ القُرَشِيِّينَ بَيْنَ قُبُورِ بَنِى عَبْدِ الحَكَمِ بِمِصْرَ، يَوْمَ الجُمُعَةِ بَعْدَ صَلاةِ العَصْرِ، فَرَحِمَ اللَّهُ الإمَامَ وَأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِهِ.

الشَّافِعِىُّ فِى سُطُورٍ

- **اسْمُهُ وَنَسَبُهُ :** هُوَ «أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ بْنِ العَبَّاسِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ شَافِعِ بْنِ السَّائِبِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ عَبْدِ يَزِيدَ بْنِ هَاشِمِ بْنِ المُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ»، وَأَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَجْدَادِ الشَّافِعِىِّ الصَّحَابِىُّ الجَلِيلُ السَّائِبُ بْنُ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .
- **أَبُوهُ :** «إِدْرِيسُ بْنُ العَبَّاسِ» كَانَ رَجُلا فَقِيرًا هَاجَرَ مِنْ «مَكَّةَ» إِلَى «غَزَّةَ» وَ«عَسْقَلان» بَحْثًا عَنِ الرِّزْقِ فَمَاتَ هُنَاكَ.
- **أُمُّهُ :** كَانَتْ أُمُّهُ مِنْ قَبِيلَةِ «الأَزْدِ»، وَكَانَتْ مِنَ العَابِدَاتِ القَانِتَاتِ، المُتَفَقِّهَاتِ فِى الدِّينِ.
- **زَوْجَتُهُ :** «حُمَيْدَةُ بِنْتُ نَافِعِ بْنِ عَنْبَسَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ – رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ .
- **أَوْلادُهُ :** «مُحَمَّدٌ» وَكُنْيَتُهُ «أَبُو عُثْمَانَ»، وَ«مُحَمَّدٌ» وَكُنْيَتُهُ «أَبُو الحَسَنِ»، وَ«زَيْنَبُ»، وَقِيلَ إِنَّ لَهُ بِنْتًا أُخْرَى تُسَمَّى «فَاطِمَةَ».
- **مَوْلِدُهُ وَوَفَاتُهُ :** وُلِدَ «الشَّافِعِىُّ» يَوْمَ «الجُمُعَةِ» آخرَ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ «رَجَبٍ» سَنَةَ (١٥٠هـ= ٧٦٧م) بِغَزَّةَ فِى «فِلَسْطِينَ»، ثُمَّ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ إِلَى «عَسْقَلانَ» ثُمَّ إِلَى «مَكَّةَ». وَتُوفِّى أَيْضًا فِى آخرِ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ سَنَةَ (٢٠٤هـ= ٨٢٠م) وَدُفِنَ عصرَ يَوْمِ الجُمُعَةِ فِى مَقَابِرِ القُرَشِيِّينَ بِمِصْرَ.
- **صِفَاتُهُ الجِسْمِيَّةُ :** كَانَ «الشَّافِعِىُّ» طَوِيلا، مُعْتَدِلَ القَامَةِ، نَحِيفَ الجِسْمِ، جَمِيلَ الوَجْهِ، لَوْنُه يَمِيلُ إِلَى السُّمْرَةِ .
- **مَكَانَتُهُ وَأَلْقَابُهُ العِلْمِيَّةُ :** نَاصِرُ السُّنَّةِ، فَقِيهُ السُّنَّةِ الأَكْبَرُ، مُجَدِّدُ القَرْنِ الثَّانِى الهِجْرِىِّ، وَاضِعُ عِلْمِ أُصُولِ الفِقْهِ.
- **عَصْرُهُ :** النِّصْفُ الثَّانِى مِنَ القَرْنِ الثَّانِى الهِجْرِىِّ (١٥٠– ٢٠٤هـ/ ٧٦٧ – ٨٢٠م)، وَكَانَ العَالَمُ الإِسْلامِىُّ تَحْتَ حُكْمِ الخِلافَةِ العَبَّاسِيَّةِ.
- **شُيُوخُهُ :** «مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ» و «عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ» و «يَحْيَى بْنُ حَسَّانٍ» و «مُحَمدُ بْنُ الحَسَنِ» و «الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ» و «سُفيانُ بْنُ عُيَيْنَةَ» و«مُسْلِمُ بْنُ خَالِدِ الزِّنْجِىُّ» و«سَعِيدُ بْنُ سَالِمٍ القَدَّاحُ» و«وَكِيعُ بْنُ الجَرَّاحِ» ... وَغَيْرُهم.
- **تَلامِيذُهُ :** «أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ» وَ«أَبُوثَوْرِ الكَلْبِىُّ» وَ«الزَّعْفَرَانِىُّ»، وَ«أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأَشْعَرِىُّ»، وَ«أَبُو عَلِىٍّ الكَرَابِيسِى»، وَ«أَبُو يَعْقُوبَ البُوَيْطِى»... وَغَيْرُهم.
- **كُتُبُهُ :** أَلَّفَ الشَّافِعِىُّ كُتُبًا كَثِيرَةَ العَدَدِ نَفِيسَةَ المُحْتَوَى مِنْهَا : «الأُمُّ»، وَ«الرِّسَالَةُ»، وَ«اخْتِلافُ الحَدِيثِ»، وَ«المُسْنَدُ»، وَ«فَضَائِلُ قُرَيْشٍ».
- **شِعْرُهُ :** لِلإِمَامِ «الشَّافِعِىِّ» مَنْزِلَةٌ كَبِيرَةٌ فِى كِتَابَةِ الشِّعْرِ وَرِوَايَتِهِ، وَقَدْ جُمِعَتْ أَشْعَارُهُ فِى دِيوَانٍ صَغِيرٍ بِاسْمِهِ.